

محاضرة

الإيمان بالقضاء والقدر

فضيلة الشيخ عبد الرزاق البدر

حفظه الله تعالى

النسخة الإلكترونية (٢)

الشيخ لم يراجع التفريع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

الحمد لله ربِّ العالمين، أحمده تَبَارَكَ وَتَعَالَى حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربُّنا ويرضى.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صَلَّى الله وسلّم عليه
وعلى آله وأصحابه أجمعين.
اللَّهُمَّ لا علم لنا إلا ما علّمتنا، اللَّهُمَّ علّمنا ما ينفعنا وزدنا علماً، واجعل ما نتعلّمه حجةً لنا لا علينا،
وأصلح لنا شأننا كلّ يا ذا الجلال والإكرام.
باسم الله، ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.
وبعد..

أيُّها الإخوة الكرام، هذا حديث عن أصلٍ عظيمٍ من أصول الإيمان وركن جليل من أركانه العظام ألا
وهو الإيمان بالقضاء والقدر.

ومن المعلوم -أيُّها الإخوة الكرام- أن الإيمان الذي خلقنا الله ﷻ لأجله وأوجدنا لتحقيقه يقوم
على أركانٍ ستّة وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره.
وقد جمعها عليه الصّلاة والسّلام في حديث جبريل المشهور عندما سأل النبي ﷺ عن الإيمان قال:
أخبرني عن الإيمان، قال: «أن تُؤْمِنَ بالله، وملائكته، وكتبه، ورُسُله، واليوم الآخر، وأن تُؤْمِنَ بالقدرِ
خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».^(١)

وقد جاء ذكر هذا الأصل في القرآن الكريم في مواضع عديدة منه، منها قول الله ﷻ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب]، وقول الله ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر]، وقال جلّ وعلا:
﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ (٣) [الأعلى]، وقال جلّ وعلا: ﴿ثُمَّ جِئْتَ
عَلَى قَدَرٍ يَمْوَسَّى ۝ (٤٠) [طه]، وقال جلّ وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢)، وقال جلّ وعلا: ﴿لِمَنْ شَاءَ
مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۝ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ (٢٩) [التكوير]، والآيات في هذا المعنى كثيرة

(١) أخرجه مسلم رحمه الله (كتاب الإيمان، باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان ح ٨).

(٢) سورة: البقرة، الآية (٢٠)، وغيرها.

في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

والإيمان بالقدر أصل جاء تبيانه في السُّنة وتبيان مكانته العظيمة ومنزلته العلية الشريفة، قد جاء عن نبينا ﷺ أحاديث كثيرة جداً في بيان أنَّ الأمور كلها بقدر الله عَزَّوَجَلَّ وأن كل ما يقع وسيقع وكان وسيكون كل ذلك بقدر الله جلّ وعلا.

جاء في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أنه قال: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ»^(١) الكَيْس: النَّبَاهَةُ والفطنة والذكاء، والعجز معروف، فكل ذلكم بقدر، ولهذا شُرِعَ لنا فيما شُرِعَ لنا من دعوات أن نقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ»^(٢) لأنَّ الذي يُعِيدُ من العجز والكسل هو الذي بيده أَرْمَةُ الأمور ومقاليذ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، فلا يسلم عبد من الكسل ولا يسلم من العجز إلا إذا سلَّمه الله؛ لأنَّ الأمور بيد الله عَزَّوَجَلَّ فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وجاء في مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي وغيرهما^(٣) عن الوليد ابن الصحابي الجليل عبادة بن الصَّامِت قال: (دخلت على والدي يوماً وأنا أتخايل فيه الموت) يعني كان مريضاً مرض الموت، فقلت له: (يا أبتاه أوصني واجتهد لي)، أي في الوصية، (فقال: أجلسوني، فأجلسوه، فقال: يا بني اعلم أنك لن تبلغ صريح الإيمان وحقيقة المعرفة بالله ﷻ حتى تؤمن بالقدر كلّ خيره وشره من الله تعالى، فقال: وكيف أعرف القدر خيره وشره من الله؟ قال: أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» يا بني اعلم إنَّك إن متَّ على غير ذلك دخلت النار).

فالإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى أصل لا ينتظم دين العبد، ولا يستقيم أمره إلا به، وقول عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لن تبلغ صريح الإيمان ولا حقيقة المعرفة بالله حتى تؤمن بالقدر. هذا يبين أن الذي لا يؤمن بالقدر ما عرف الله ﷻ ولا عرف عظمة الله ولا قدر الله ﷻ حقَّ قدره، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

(١) أخرجه مسلم (ح ٢٦٥٥) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (ح ٦٣٦٧) ومسلم (ح ٢٧٠٦) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (ح ٢٢٧٠٥)، والترمذي (ح ٢١٥٥) وأبو داود (ح ٤٧٠٠) وصححه الألباني في «الصحيحة» (ح ١٣٣).

فالذي لا يؤمن بالقدر لم يعرف الله ، قد قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: (القدر قدرة الله) ^(١) ،
فالذي لا يؤمن بالقدر هو في الحقيقة لا يعرف الله، ولا يؤمن بالله، وليس من الموحدين، ولا من
المؤمنين؛ بل يكون من الكفار أهل النار.

ولهذا جاء عن الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنه أنه قال: (القدر نظام التوحيد؛ فمن آمن بالله
وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيدَه) ^(٢) أي أنه بتكذيبه بالقدر ينتقض توحيدَه، فلا يكون مؤمناً؛ بل
يكون كافراً بالله، وإذا كان الإيمان بالقدر نظام التوحيد، بمعنى أن توحيد العبد لا ينتظم إلا بالإيمان
بالقدر فإن التوحيد نفسه نظام الحياة، فحياة الإنسان لا تنتظم إلا بتوحيد الله. ومن لم يوحد الله تعالى ولم
يكن من أهل توحيدَه -جلّ وعلا- تكون أموره وحياته وشؤونه كلها فُرطاً، كما قال الله سبحانه وتعالى:
﴿وَلَا نُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [الكهف].

فإذا انهدم التوحيد انفرطت الحياة، وضاع الزمام، وانفلت الخطام، وتبددت الأمور، وعاش الإنسان
في ضياع، وأصبحت حياته كلها تباب، لا قيمة لها؛ خسران في خسران، وحرمان في حرمان، وضياع في
ضياع.

فلا تنتظم الحياة إلا بتوحيد الله تعالى، ولا ينتظم توحيدَه -جلّ وعلا- إلا بالإيمان بقدره، وأن الأمور
كلها بتقديره تعالى، وأن الأمور كلها بمشيئته، وأن ما شاء جلّ وعلا كان وما لم يشأ لم يكن. كما قال
الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى- في أبيات عظيمة له جميلة في تقرير الإيمان بالقدر قال :

ما شئتَ كان وإن لم أشأ	وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن
خلقتَ العباد على ما علمته	وفي العلم يجري الفتى والمُسن
على ذا مننتَ وهذا خذلتَ	وهذا أعنتَ وذا لم تُعن
فمنهم شقيٌّ ومنهم سعيد	ومنهم قبيحٌ ومنهم حسن

هذا كله بمشيئة الله، وبقدرة الله تعالى.

ثم إن الإيمان بالقدر لا يكون إلا بالإيمان بمراتبه ولا يكون العبد مؤمناً بالقدر إلا إذا آمن بمراتب
القدر. وهي مراتب أربعة، لا يكون العبد مؤمناً بالقدر إلا إذا آمن بها :

(١) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» لابن القيم، (ط ١٣٩٨، ت: أبو فارس الحلبي).

(٢) أخرجه الفريابي في القدر رقم (٢٥٥)، وعبد الله بن أحمد في السُّنة (ص ١٢٣ و ١٢٤)، وابن بطة في الإبانة رقم (١٦٢٤)، والأللكائني رقم (١٢٢٤).

المرتبة الأولى: الإيمان بعلم الله ﷻ الشامل المحيط الواسع لكل شيء.

العلم: الإيمان بعلم الله ﷻ وأن الله ﷻ أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً.

علم ما كان، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝٣﴾ [سبا].

فالإيمان بعلم الله - جلّ وعلا- المحيط بكل شيء أصل من أصول الإيمان بالقدر وركن من أركانه، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ [الحديد].

هذا الأصل الأول أو الركن الأول أو المرتبة الأولى من مراتب الإيمان بالقدر.

المرتبة الثانية: الإيمان بالكتاب وأن الله ﷻ كتب كل ما هو كائن في اللوح المحفوظ.

ومر معنا قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾ [الحج].

وقال جل وعلا: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ۝٥٣﴾ [القمر].

وقال جل وعلا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ۝١٣﴾ [يس].

هذه الآية من سورة يس ذكر فيها نوعان من الكتابة.

النوع الأول: كتابة الملك، وهي الكتابة المقارنة للفعل، ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ [يس: ١٣] هذه الكتابة المقارنة للفعل، كل فعل يفعله العبد مباشرة يكتبه الملك، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق]، هذه الكتابة مقارنة للفعل، وقت الفعل يكتب الملك، إن كانت حسنة كُتبت حسنة، وإن كانت سيئة كُتبت سيئة.

[النوع الثاني]: قول الله جلّ وعلا في ختم الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ

أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ۝١٣﴾ [يس] هذه الكتابة التي كانت في اللوح المحفوظ.

والإمام هنا اللوح المحفوظ، يُقال له: الإمام، ويُقال له: الزُّبُر، ويُقال له: اللوح المحفوظ، والله ﷻ

كتب في اللّوح المحفوظ كلّ ما هو كائن إلى قيام السّاعة .

قد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ».^(١)

هَذَا الْمَجْلِسُ الَّذِي جَلَسْنَاهُ الْآنَ - نَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ مَنْ عَلَيْنَا بِهِ أَنْ يَقْبَلَهُ مِنَّا بِقَبُولِ حَسَنِ - كُتِبَ فِي
اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.

يقول عبد الله بن عباس - وانظروا - أيها الأخوة رعاكم الله - فقه الإمام بالقدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كل شيء بقدر حتى وضعك كفك على ذنك هكذا بقدر).

فالأمر كلُّها مقدَّرة وكلُّها مكتوبة في اللّوح المحفوظ، كتب الله ﷻ ما هو كائن قبل خلق السَّموات والأرض بخمسين ألف سنة. هذه المرتبة الثانية.

المرتبة الثالثة من مراتب الإيمان بالقدر: الإيمان بمشيئة الله جل وعلا النافذة وقُدرته سُبْحَانَهُ الشَّامِلَة، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والإيمان بمشيئته النافذة بأن ما شاء الله كان طبقاً لما شاء في الوقت الذي شاء على الوجه الذي شاء سُبْحَانَهُ ما شاء الله كان حتَّى وإن لم يشأ ذلك العبد.

مَا شِئْتُ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ
 فَالشيء الذي يشاؤه الله يقع طبقاً لما شاءه ﷻ، في الوقت الذي شاءه، على الهيئة والصفة التي شاءها
 ﷻ ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ [التكوير].

يقول الله ﷻ في أواخر سورة ﴿ هَلْ أَتَى ﴾؛ سورة «الإنسان»: ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ ^ط فَمَنْ شَاءَ أَخَذْ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ^ج إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ^ج وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾ ۞ .

فإذن الإيمان بمشيئة الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- النّافذة وقدرته -جَلّ وعزّ- الشّاملة، هذا أصل ومرتبة عظيمة من مراتب الإيمان بالقدر.

المَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: الإيمان بأنَّ الله خالق كلِّ شيء، وأنَّ جميع ما وُجد ويوجد فالله خالقه .

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ [الصافات]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ

(١) أخرجه مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ (ح ٢٦٥٣)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كُلِّ شَيْءٌ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ [الزمر]، وقال -جلّ وعلا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦٣﴾ [الفاتحة].

فالإيمان بأن الله هو الخالق لكل شيء هذا أصل من أصول الإيمان بالقدر. خالق كل شيء أي خالق الأشخاص، خالق الذوات، وخالق أيضًا الصفات وخالق الأعمال، فأعمال العباد من خير وشر كلّها مخلوقة لله ﷻ لأنّ الله خلق العباد وخلق أعمال العباد، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ فالله -جلّ وعلا- خالق كل شيء، فالعبد مخلوق؛ حركات العبد وسكناته مخلوقة لله، الله هو الخالق لكل شيء. الخالق للعبد والخالق لحركاته، فكل حركة تتحرّكها وقيام وقعود ونوم وركوب وعدم ركوب وغير ذلك من حركاتك؛ هذه كلّها مخلوقة لله.

فالله ﷻ خالق كل شيء. وجميع ما في هذا الكون، وجميع ما في هذه المملكة -مملكة ربّ العالمين- كلّ خلق لله، ولا يمكن أن يكون في ملك الله ﷻ شيء لم يخلقه ولم يوجده ﷻ، فكل شيء مخلوق لله.

فهذه أربع مراتب عظيمة لا يكون العبد مؤمنا بالقدر إلا بالإيمان بها.

* العلم * الكتابة * المشيئة * الإيجاد

علمٌ كتابة مولانا مشيئته وخلقته وهو إيجاد وتكوين

فهذه مراتب الإيمان بالقدر الأربعة.

عندما يسمع المسلم هذا الحديث وهذه النصوص وهذه الدلائل وهذه البراهين ينقدح في ذهنه سؤال مهم للغاية، ينبغي أن نتبّه له وأن نتبّه جيّدًا لجوابه، ففيه خيرٌ عظيم ونفعٌ عظيم.

عندما يقف المسلم على هذه الأدلة الدالة على أنّ الأمور كلّها بقدر يأتي في ذهنه سؤال ألا وهو: إذا

كانت الأمور كلّها مقدّرة وكلّها مكتوبة، ولا يكون أمرٌ إلا بمشيئة الله، لماذا نعمل؟ فيمّ العمل؟

هذا سؤال كما يُقال: يطرح نفسه، والصّحابة الكرام رضي الله عنهم طرحوه على النبي -عليه الصّلاة

والسّلام- في غير ما مناسبة وفي غير ما حديث، ولهذا جاء في حديث علي رضي الله عنه أنهم سألوا النبي -عليه

الصّلاة والسّلام- فقالوا: أنعمل في أمرٍ قدّر وقُضي أو في أمرٍ مستأنف؟ - يعني لم يُقدّر ولم يُقض. فقال

عليه الصّلاة والسّلام: «بل في ما قدّر وقُضي»، فقالوا: ففيمّ العمل؟ - وجاء في بعض الروايات قالوا: ألا

نتكل على القدر؟ ما معنى: نتكل على القدر؟ يعني كل واحد يجلس لا يعمل ويقول المُقدّر يأتيني. ألا

نتكل على القدر؟ في روايات قالوا: ففيمّ العمل؟ فماذا قال؟ وهذه مسألة كبيرة جدًّا ومطروحة والآراء

فيها كثيرة؛ لكن ليس هناك جوابٌ شافٍ لهذه المسألة التي هي من عظيم المسائل ومهمّها إلا كلمتين قالهما النبي -عليه الصلاة والسلام- للصّحابة ففهموها ووعوها وعملوا بهما، ولا سعادة لعبيد ولا نجاة إلا بذلك. فلما قالوا له: يا رسول الله؛ فيم العمل؟ قال: «اعملوا فكلُّ مُيسِّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَيُيسِّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ» ثم تلا قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۖ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ ﴿١٠﴾﴾ [الليل].^(١)

إذن الجواب يتلخص في كلمتين «اعملوا، فكلُّ مُيسِّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» يتلخص بها الجواب في هاتين الكلمتين: جملة طلبية وجملة خبرية:

الجملة الطلبية: «اعملوا». ولا يقال: اعمل إلا لمن له مشيئة. والعبد له مشيئة. قال: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۚ﴾ [المدثر]، ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۚ﴾ [المزمل] العبد له مشيئة، ولهذا يقال له: اعمل. وإلا لو لم يكن له مشيئة لا يقال لمن لا مشيئة له: اعمل. فإذا قوله -عليه الصلاة والسلام-: «اعملوا» هذه فيه إثبات مشيئة العبد وأن العبد في حركاته وتنقلاته وقيامه وقعوده وركوعه وطاعته أو - والعياذ بالله - ومعاصيه كلُّ هذه أعمال يمارسها بمشيئته. ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد] أي طريق الخير وطريق الشر، فمن ذهب إلى طريق الخير ذهب له بمشيئته ومن ذهب إلى طريق الشر أيضاً ذهب إليه بمشيئته، فله مشيئة، ولهذا قال: «اعملوا»، ولا يقال: اعمل، إلا لمن له مشيئة.

الجملة الخبرية: قال: «فكلُّ مُيسِّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» يعني الأمور كلها بمشيئة الله ومشيئة العبد تحت مشيئة الله، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير].

فتلخص الجواب - أيها الإخوة الكرام - في أمرين:

الأمر الأول: أن العبد يجاهد نفسه على الأعمال الصالحات والطاعات الزاكيات والبعد عن الأعمال المحرّمات، وفي الوقت نفسه يلجأ إلى الله، «اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ».^(٢) في الدُّعاء الآخر قال: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (ح ٢٦٤٧).

(٢) أخرجه أبو داود (ح ٥٠٩٠) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، وحسنه الألباني رحمته الله.

«دِينِكَ»^(١)، في الدعاء في القرآن قال: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤْخِذْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران] ، وفي الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالسَّدَادَ»^(٢)، وفي الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى وَالْعُفَاةَ وَالْغِنَى»^(٣)، فالأمر بيد الله.

إذا العبد يجتهد ويجد في الأعمال الصالحات والطاعات الزاكيات وفي الوقت نفسه يطلب العون من الله. ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة].

جاء رجل إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- يسأل عن ناقة كانت معه - قال: يا رسول الله؛ أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ أي الأمرين أفعل؟ هل أبذل الأسباب وأتوكل على الله أم أعطل الأسباب وأتوكل على الله؟ قال: «اغقلها وتوكل»^(٤)، يعني ابذل السبب، فالعبد مطلوب منه أن يبذل السبب، وفي الوقت نفسه لا يعتمد على السبب وإنما يعتمد على مسبب الأسباب رب العالمين جل وعلا، ولهذا قال له: «اغقلها وتوكل» لماذا؟ لأن الأمور بمشيئة الله سبحانه وتعالى.

وقد جمع هذا -عليه الصلاة والسلام- في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ ﷺ: «اُخْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلْ، فَإِنْ (لَوْ) تَفَتَّحَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ»^(٥) «وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلْ» أي الأمور كلها بقدره الله ﷻ ومشيئته ﷻ.

والإيمان بالقدر -أيها الأخوة الكرام- يفيد العبد فوائد عظيمة، يعطي القلب قوة ويزيد العبد معرفة بالله ﷻ ويذل له الصعاب ويرزقه الله -جل وعلا- بإيمانه بالقدر السلوان في المصائب، فإذا أصيب بمصائب تجد المؤمن بالقدر، يسلم بإيمانه بالقدر.

كما قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]. قال علقمة رحمه الله تعالى: (هو المؤمن تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم). يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. ولهذا يقول النبي -عليه الصلاة والسلام-

(١) أخرجه الترمذي (ح ٢١٤٠)، وابن ماجه (ح ٣٨٣٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الشيخ الألباني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (ح ٢٧٢٥).

(٣) أخرجه مسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ح ٢٧٢١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه الترمذي (ح ٢٥١٧) من حديث أنس بن مالك، وحسنه الألباني.

(٥) أخرجه مسلم (ح ٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لابن عباس رضي الله عنهما: «أَحْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ أَحْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(١).

يعني الأمور كلها مكتوبة ومقدرة، ولهذا المؤمن بالقدر إذا أصيب بالمصائب سلاه إيمانه بهذا، وفزع إلى هذا الإيمان فأرشدته إلى أن الأمور كلها بتقدير الله وأن ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وهنا تظهر الميزة العظيمة للإيمان، يقول -عليه الصلاة والسلام-: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٢).

فالمؤمن في سرّائه شاكر وفي ضرّائه صابر. في سرّائه يفوز بثواب الشاكرين، وفي ضرّائه يفوز بثواب الصّابرين. فهو فائز رابح غانم في كلّ أحواله.

وأسأل الله الكريم ربّ العرش العظيم بأسمائه الحسنی وصفاته العليا أن يوفقنا جميعاً للأعمال الصّالحات وأن يزيّننا جميعاً بزيّنة الإيمان وأن يجعلنا هداة مهتدين.

اللّهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحة لنا من كل شر.

اللّهم آت نفوسنا تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها، أنت وليّها ومولاها.

اللّهم إنّنا نعوذ بك من سوء القضاء وشماتة الأعداء ودرّك الشّقاء، اللّهم إنّنا نعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

اللّهم اغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله وسلّم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) أخرجه الترمذي (ح ٢٥١٦) من حديث عبد الله بن عباس، وصحّحه الألباني رحمته الله.

(٢) أخرجه مسلم (ح ٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.